مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (5) العدد (7) 2021
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (5) No. (7) 2021

نظريّة القيم في ضوء تعالق الشّكل والمضمون

أ.د جسين وقّاف*

د. بشير ناصر**

ندى محمود دوارة***

(تاريخ الإيداع 31 /5 /2021. قُبِل للنشر في 9/6 /2021)

□ ملخّص □

تعدّ قضية الشّكل والمضمون من القضايا المهمّة الّتي بنيت عليها نظريّات كثيرة، والبحوث في العلوم المتنوّعة، إذ تنشأ تلك البحوث معتمدة على تعالق هذين الرّكنين أو تقديم أحدهما على الآخر، وفقاً لرؤية الباحث أو العلم نفسه.

وعلى غرار ذلك تصدّى علم الجمال لهذه الثنائيّة، وكان لها أثرٌ واضح في رسم فلسفته وتحديد معالمها، وإصدار الأحكام الجماليّة الّتي يعتمدها في تقويمه للأعمال الأدبيّة أو الفنيّة من جهة تعالق الرّكنين، أو انقسامهما.

تقدّم هذه الدّراسة رؤية للأحكام التّقويميّة المرتبطة بتعالق الشّكل والمضمون في العمل الفنّي أو الأدبي، وتتضّمن مقدّمة للبحث، ومن ثمّ أربعة مباحث؛ المبحث الأوّل في المعاني اللّغويّة، والمبحث الثّاني في المعاني الاصطلاحيّة، والمبحث الثّالث في الشّكل والمضمون، أمّا المبحث الرّابع ففي القيمة والتقويم، ومن ثمّ الخاتمة.

الكلمات المفتاحيّة: الأكسيولوجيا، القيمة، التّقويم، تعالق، الشّكل، المضمون.

* أستاذ دكتور حسين وقّاف، اللّغة العربيّة، كليّة الآداب، جامعة طرطوس.

** أستاذ مساعد، اللّغة العربيّة، كليّة الآداب، جامعة تشرين.

*** طالبة ماجستير، لغة عربيّة، كليّة الآداب، جامعة طرطوس.

مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (5) العدد (7) 2021
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (5) No. (7) 2021

Axiology of Form and Content Correlation

*** Pro .D. Hussain wakkaf.**
**** D. Basher nasser.**
***** Nada Mahmoud Dawara**

(Received 31/5 /2021. Accepted 6/9/2021)

□ ABSTRACT □

The important issues on which many theories are built, and research in various sciences, as these research arise based on the relationship of these two pillars or the introduction of one over the other, according to the researcher's vision or science itself.

And similarly to aesthetics confronted this duality And it had a clear effect in drawing his philosophy, defining its features, and issuing aesthetic judgments that he adopts in his evaluation of literary or artistic works in terms of the relationship of the two pillars, or their division.

This study presented a view of the evaluative judgments related to the relationship of form and content in the artistic or literary work, and included an introduction to the research, and then four topics: The first study deals with linguistic meanings, the second study deals with formal meanings, and in the third research the form and content are related, and in the fourth topic the values are related to form and content, and then the conclusion.

Key words: Axiology , Value, calendar, correlation , the shape, secured.

*pro. D. Hussain Wakkaf: Arabic, College of Literature, Tartous University.
**D. Basher Nasser; Arabic, College of Literature, Tishreen University.
***Nada Mahmoud Dawara; MA student, Arabic, College of Literature, Tartous University.

مقدّمة:

تتعالق قضيّة الشّكل والمضمون مع العمل الفنّي أو الأدبي من ناحية تأثّرها نفسها برؤية المبدع الّذي يصوغها ليبدع عمله من جهة، ومن ناحية تأثيرها في الحكم التّقويمي من جهة أخرى؛ إذ يخضع إبداع العمل وتقويمه إلى القيم الّتي يحتكم إليها الفنّان أو الأديب في إبداعه، والنّاقد في تقويمه ؛ سواء أكانت هذه القيم تستند إلى المدرسة الفنيّة أو الأدبيّة الّتي يحتكم إلى قوانينها ومبادئها، أم إلى القيم الخاصّة والعامّة الّتي يؤمن بها، وتتجلّى في حياته أو في مبادئ المجتمع الّذي يعيش فيه، والقوانين الّتي تنظّم أموره الحياتيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة وغيرها.

أوّلاً: في المعنى اللّغوي:

عرّفت القيمة في المعاجم اللّغويّة أنّها "واحدة القيم، وأصله واو، لأنّه يقوم مقام الشّيء، والقيمة ثمن الشّيء بالتّقويم"[3]، وبذلك تكون قيمة الشّيء لغةً ثمنه الماديّ، أو قدره المعنويّ، وأضافت قرارات مجمع اللّغة العربيّة في القاهرة لكلمة (القيم) معنى آخر، وهو"الفضائل الدّينيّة والخلقيّة والاجتماعيّة الّتي يقوم عليها المجتمع الإنسانيّ."[4]

أمّا التّقويم فله معان عديدة؛ منها "قوّم السّلعة، واستقامها قدّرها "[5] وكذلك "قوّمته وعدّلته"[6] وهو بذلك يعني إعطاء قيمة للشّيء أو العمل أو الفكرة، وتصويب الخطأ إن وجد، والإثناء على الأمور الجيّدة فيه.

وورد الشّكل في المعاجم على أنّه "شكل الشّيء صورته المحسوسة والمتوهَّمة [...] وتشكّل الشّيء: تصوّر، وشكّله: صوّره."[7]

بينما يقدّم المضمون معنى ما أودع في شيءٍ "ضمّن الشّيء: أودعه إيّاه كما تُودِعُ الوعاء المتاع، والميّت القبر، وقد تضمّنه هو[...] وكلّ شيء جعلته في وعاء فقد ضمّنته إيّاه [...] ويقال: ضَمِنَ الشّيء بمعنى تضمّنه، ومنه قولهم مضمون الكتاب كذا وكذا."[8]

أمّا كلمة تعالق فلم يثبت وجودها في معجم لغويّ عربيّ، إلاّ أنّها مفردة مشتقّة من الجذر اللّغوي (علق)"علق بالشّيء علقاً وعَلِقَه: نشب فيه [...] وعلق الشّيء عَلَقاً، وعَلِق به عَلاقة وعُلوقاً: لزمه"[9]، وإن كان هذا المصطلح يشتقّ من الجذر اللّغويّ نفسه لعلاقة إلاّ أنّهما يختلفان فيما يقدّمانه من معنى إزاء ما يربط بين الشّكل والمضمون؛ فعلاقة تدلّ على لزوم أحد الرّكنين للآخر لزوماً يحافظ فيه كلٌّ من الطّرفين على خصائصهما، فتسمّى علاقة سببيّة أو تكامليّة وبذلك لا يفرض أحد الطّرفين على الآخر هيئةً خاصّةً أو صفاتٍ معيّنةً، فنستطيع بذلك أن نميّز خصائص كلّ منهما عن الآخر، دون أن تؤثّر خصائص أحدهما في الآخر أو

([3]) ابن منظور: لسان العرب، المجلد 12، دار صادر، بيروت، د.ت، مادة قوم، ص500.

([4])الخطيب ،عدنان: القيمة والتقويم، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق،ج3، ع57، 1981، د.د ،دمشق، آب 1982،ص513

([5]) ابن منظور: لسان العرب، مجلد 12، مادة قوم ، ص 500.

([6])الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، تنقيح الشيخ أبو الوفا نصر الهوريني المصري الشافعي، راجعه أنس محمد الشّامي–زكريا جابر أحمد، دار الحديث ، القاهرة، 2008،مادة قوم، ص 1382.

([7])ابن منظور : لسان العرب، مجلد 11، مادة شكل، ص 357.

([8])المصدر نفسه: المجلد 13، مادة ضمن، ص257-258.

[9] ابن منظور: المجلد 10، مادة علق، ص 261.

تفرض عليه تغييراً خاصّاً، بيد أنّ مصطلح التّعالق يقوم على معنى الارتباط التّفاعلي المبنيّ على معنى المشاركة المأخوذ من وزن تفاعَل "تفاعل لمشاركة أمرين فصاعداً في أصله صريحاً نحوَ تَشارَكا [...] وتفاعل للاشتراك في الفاعليّة لفظاً، وفي المفعوليّة معنى"[10] ،وبذلك يكون تعالق الشّكل والمضمون قائماً على فاعليّة كلّ منهما في الآخر، ووقوع المفعوليّة على كليهما أيضاً، وسنستخدم هذه الكلمة في البحث للإفادة من معنى المشاركة الموجود في الوزن اللّغويّ(تفاعل)؛ إذ ينتج الأثر الفنيّ أو الأدبيّ وفقَهُ عن تشارك شكله ومضمونه في الفاعليّة والمفعوليّة في آن واحد؛ أي تشاركهما في التأثّر والتّأثير الذي تنبني عليه حتميّة الإفادة من استمداد كلّ منهما لخصائصه من خصائص الآخر، وامتزاجهما في كينونة وجدانيّة واحدة لا يعود معها فصل أحدهما عن الآخر، دون تحطيم الأثر أو إلغاء قيمته ممكناً؛ فيغدو بذلك العمل هو الشّكل والمضمون معاً، وليس عملاً له شكل و مضمون.

ثانياً: في الخلفيّة الاصطلاحيّة:

إنّ دراسة القيم وتصنيفها، ودراسة أثرها، وطبيعة وجودها في الأعمال الفنيّة أو الأدبيّة أو الحياتيّة في المجتمعات تُدرس في علم يسمّى "الأكسيولوجيا (Axiology) أو ما يعرف بنظريّة القيم؛ وهو مصطلح حديث يراد به: "البحث في طبيعة القيم وأصنافها، ومعاييرها، وأصبح باباً مهمّاً من أبواب الفلسفة العامّة، ويرتبط خاصّة بعلوم المنطق والأخلاق والجمال والإلهيّات"[11] ، فيدرس هذا العلم القيم من حيث هي "خاصّة تجعل الأشياء مرغوباً بها"[12]، وهي بذلك تتّسم بالإطلاق والنّسبيّة في آن واحد، فالقيم مطلقة في مجتمعٍ، ونسبيّة إذا ما نظر إلى ترتيبها في منظومة القيم بين عدة مجتمعات، وكذلك هي مطلقة في حياة شخص، ونسبيّة إذا ما قورنت مرتبتها بين الأشخاص، وعلى ذلك فهي "ما يعلّق عليه الإنسان أو مجموعة من النّاس أهميّة كبرى من حيث قابليّتُه ليكون مبدأ من مبادئ ، السلوك الأخلاقي أو الإيمان الدّيني أو الفلسفيّ، ويكون هذا بطبيعة الحال شيئاً مجرّداً أو نسبيّاً في رأي البعض*"[13]

أمّا الشّكل فهو "أسلوب ترتيب أجزاء التأليف الأدبيّ، والتّنسيق بينها النّسق البنائيّ لعمل من أعمال الفنّ"[14]؛ فهو الشّروط الفنيّة الّتي يتطلّبها كلّ نوع أدبي أو فنيّ كي يستحقّ العمل انتماءه إليه، ولا يكون بذلك خطّاً خارجيّاً منفصلاً بكيانه عن موضوع العمل وفكرته، إنّما خصائص شكليّة منسجمة مع المضمون في إطار الجمع الكلّي للعمل انسجاماً يتّسم بالاستقرار النّسبيّ للمادّة المكوّنة له أمام الحركة المستمرّة والدّائمة لمضمونه.

---

[10] الاسترابادي النّحوي: شرح شافيّة ابن الحاجب، شرح شواهده عبد القادر البغدادي، تح محمد نور الحسن، محمد الزفزاف، محمد محيي الدّين عبد الحميد، ج1، دار الكتب العلمية –بيروت، لبنان، 1982م، ص 99–100.

[11] مدكور، د.ابراهيم: مجمع اللغة العبية المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1983، ص 158.

[12] وهبة، مجدي، المهندس، كامل: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984، ص 301.

[13] المصدر السّابق نفسه: ص 301.

* الخطأ وارد في المصدر والتّصويب بعضهم.

([14]) فتحي ،إبراهيم: المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، تونس، 1986،ص 213.

بينما يكون المضمون "ما يشتمل عليه العمل الفنّيّ من فكر أو فلسفة أو أخلاق أو اجتماع أو دين أو غير ذلك"[15]، وليس من الصحيح"أن يختزل مضمون الأدب إلى عنصر مفرد هو الاتّجاه الفكري أو الاجتماعي، فالمضمون الأدبيّ متعدّد العناصر، فهناك في العمل الواحد مضامين مختلقة، مثل: المضمون الحسّيّ، والسيكولوجي الاجتماعي، والفرديّ، والفكريّ الاجتماعيّ، قد تتناقض فيما بينها رغم وحدتها"[16]، وبذلك يعبّر المضمون عن محتوى النّصّ والأفكار الّتي يتناولها، وطريقة تقديمها، والمشاعر التي يعبّر عنها، وهو بذلك يختلف عن الموضوع الّذي يكون واحداً في العمل أمام تعدّد المضمون الّذي يعتمد على ما تناوله الكاتب في نصّه من هذا الموضوع، والأسلوب الذي قدّمه فيه، وذلك لا يختلف بين كاتب وآخر فقط بل بين عمل وآخر للكاتب نفسه، "فالمضمون ليس مجرّد ما يقدّمه الفنان، بل كيف يقدّمه؟ في أيّ سياق؟ وبأيّ درجة من الوعيّ الاجتماعيّ والفرديّ؟ كما يشير إلى وجهة نظر الفنّان"[17]، فقد يكون الموضوع عن الحرب، فيعبّر كاتب عن ملامح المعاناة الاجتماعيّة في نصّ، ويعبّر آخر عن المواراة السّياسيّة والاستغلال ساخراً في نص آخر.

إنّ هذا التّقديم للشكل والمضمون، وإن كان قد فصل في التّعريف بينهما إلاّ أنّه لا يسعى إلى ترسيخ فصلهما؛ إذ لا يتكوّن عمل فنّي أو أدبي إلا من تعالقهما معاً، والتّعالق هو تشارك أجزاء العمل الفنّي أو الأدبي(الشكل والمضمون) في خصائصها من حيث التأثّر والتأثير بعضها ببعض، وتكوينها للعمل الكلّي المبني على تفرّد أجزائه القائم على انسجامها في منظومة الجمع الكلّي لها في العمل، واستمدادها لخصائصها المميّزة لها في الأثر الأدبي أو الفنّي الواحد دون سواه انطلاقاً من تعالق هذه الأجزاء مع بعضها تعالقاً أوجبته وحدة العمل المبدع.

وفي ذلك تمايز واضح بين الجمع بين طرفين متمايزين يحافظ كلّ منهما على خصائصه في العلاقة، وبين الانسجام في خصائص الأجزاء المكوّنة للعمل الفنّيّ أو الأدبيّ وتفرّدها من خلال اتّحادها في منظومة الجمع الكليّ للعمل الّذي تكوّنه بالتأثير المتبادل بين عناصرها في التّعالق.

ثالثاً: في الشّكل والمضمون

إنّ الخلاف السّائد بين المدارس النّقديّة حول قضية (الشّكل والمضمون) أنتج نظريّاتٍ مختلفة أتاحت الفرصة لإطلاق أحكام جماليّة متباينة إثر ما تستند إليه من قيمٍ ومبادئَ تستندُ إلى تعالقهما معاً أو انفصالهما.

وعليه تفصل بعضٌ من الدّراسات في حكمها التّقويمي بين الشّكل والمضمون فتقدّم أحدهما على الآخر، وتُفاضل بينهما، كتقديم الشّكل عند الشّكلانيّين الرّوس، وتقديم المضمون عند الرّومانسيّين، وهي بذلك تبتعد في حقيقة تقويمها عن كيان العمل وهويّته الّتي لا تتحقّق بغير تعالق الشّكل والمضمون والانسجام بينهما؛ فإصدار الحكم الجماليّ على عمل ما انطلاقاً من تقديم شكله على مضمونه أو العكس هو كأن تساوي بين العمل بكليّته مع جزء منه، ولا يصح أن يكون طرف من الأطراف طاغياً على طرف آخر في ثنائية تشكّل عضواً واحداً.

---

[15]) العشماوي، محمد زكي: قضايا النّقد الأدبي بين القديم والحديث، دار النّهضة العربية، 1979، ص229.

[16]) فتحي، إبراهيم: معجم المصطلحات الأدبيّة، ص 334.

[17]) فيشر، أرنست: ضرورة الفن، تح. أسعد حلين، الهيئة المصرية للكتاب، 1998، ص 170.

إنّ هذا التّقسيم قد يصحّ في الحكم على الأدوات الإلكترونيّة، أو الأثاث المنزلي، أو الملابس فنحن أمام هذه الماديّات ومضمونها الوظيفيّ نستطيع أن نقول: إنّ الشّكل جميل، لكنّه لا يؤدّي الوظيفة المطلوبة فمضمونه سيّء، وقد يكون العكس فيصبح الشّكل قديماً أمام الابتكارات الجديدة، ويبقى المضمون جيّداً، ويعود للشّخص الحكم في انتقاء الأفضل له وفق ذوقه وميوله ومنفعته، لكنّ ذلك غير ممكن عند الحكم على العمل الأدبيّ أو الفنيّ؛ فأمام القصيدة الّتي تنتظم كلماتها في وحدات إيقاعيّة ضمن البيت الشّعري لتعبّر عن الأفكار المرادة، والمشاعر المتدفّقة لا يمكن أن يكون التقويم موجها إلى "كلّ ما يتّصل بتحقّق الصّورة الخارجيّة لهذا الفنّ من موسيقى، وصور شعريّة، وصياغة فنيّة"[18] ؛ إذ لا نستطيع أن نجعل من هذه الكلمات والأوزان الشعريّة، وألوان البلاغة، والبديع شكلاً منفصلاً عن المعنى بوصفها صورة خارجيّة، فالكلمات تنفصل عن المضمون إن اقتصرت على معناها المعجميّ فقط، ولكنّها وما تكوّنه من صور بيانيّة، ومحسّنات بديعيّة تحمل المعاني المناسبة للنّصّ الذي تتضمّن فيه، وتتناغم مع الحالة الانفعاليّة والنّفسيّة والاجتماعيّة والثّقافيّة للمبدع الّذي أوجدها، فتصبح بذلك جزءاً من حالة الخلق التي أُبدع بها النّص، وينسجم مع هذا الأمر حقيقة صدور القافية، والوزن الشّعريّ عن الحالة النّفسيّة، والغرض الشّعريّ، والمعاني الموظّفة في النّصّ؛ وإن كان لها قوانين تختصّ بدراستها إلاّ أنّها تبرّر وجودها ولا تفرضه.

وبذلك فإنّ النّظرة التّقسيميّة بين الشّكل والمضمون الّتي تؤدّي إلى تفكيك وحدة العمل دون دراسة عناصره، هي نظرة منافيةٌ لغرض التّقسيم الّذي وضعت من أجله العلوم والقوانين؛ إذ لم يضع الخليل بن أحمد الفراهيدي * علم العروض للحكم على القصيدة؛ وإنّما لدراسة موسيقا الشّعر الّتي تكوّن مع بقيّة العناصر القصيدة، وكذلك شأن ابن المعتز ** مؤسّس علم البديع.

فتقسيم النّص إلى أجزاء بعضها شكليّ وبعضها معنويّ ليس سوى خطوة لتسهيل الدّراسة والتّحليل، والوصول إلى دقائق الأمور التي كوّنت الخلفيّة المحفّزة لخلق هذا العمل، وإبداع صورته المتكاملة، إلاّ أنّه في حقيقته؛ هو كلٌّ مبدع من مكوّنات منسجمة مؤثرة ومتأثّرة بعضها ببعض.

فأمام اللوحات الفنيّة مثلاً نلحظ التّعالق، والتّناغم الّذي يمنح كلّ لوحة خصائص تختصّ بها دون غيرها فتقدّم موضوعها، بطريقة تناول خاصّة، و توضح المدرسة الّتي ينتمي إليها المبدع، بما تمليه من أساليب تعبيريّة؛ فتختلف اللّوحة في الرّسم التّجريديّ عنها في الفنّ السّرياليّ مثلاً من حيث التّعبير بالألوان، والخطوط، وطريقة إظهار الملامح الخاصّة بالموضوع، إلاّ أنّ اللّوحة الواحدة تنطق بتكاملها ما أراده المبدع فلا يمكن أن نفصل بين لغة اللّون والمضمون، إذ لا يستوي ما يفيده اللّون الأحمر في لوحة الغروب مع اللّون نفسه في لوحة عن الحرب مثلاً؛ فلكلٍّ مضمونه الّذي تعالق مع أدواتٍ شكلانيّة في تصنيفها ارتآها المبدع لتشكّل لغة موضوعه، وتعبّر عن أفكاره.

---

[18] العشماوي، محمد زكي: قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، ص227.

*الخليل بن أحمد الفراهيدي: (718–791) لغوي ولد بعمان، ومات بالبصرة، درس اللّغة والقرآن والحديث، على أبي عمرو بن العلاء[...] أشهر تلاميذه سيبويه والأصمعي[...]، كان عارفاً بالموسيقى فاستنبط علم العروض (مجموعة من العلماء والباحثين: الموسوعة العربية الميسرة، المكتبة العصرية، ط1، صيدا–بيروت،2010، ص 1452)

** ابن المعتز(909–861) عبد الله بن محمد بن الخليفة المعتز بالله، شاعر وبلاغي، ولد وقتل في بغداد، وتولى الخلافة يوماً واحدا، [...] كان أول من حاول تحديد خصائص مذهب البديع في كتابه البديع، الذي رد به على المحدثين، وأبان أن البديع ليس فناً مبتكراً، وإنما هو فن عرفه قدماء العرب، وإن لم يتعمدوه. (المصدر السابق نفسه، ص 47)

كذلك الأمر عند مشاهدة عمل مسرحيّ أو دراميّ أو سينمائيّ؛ فإنّ البناء الدراميّ، وتدرّج الأحداث فيه لا ينفصل عن الموسيقا التّصويريّة، والإضاءة، وانفعالات الممثّلين مثلاً، ولا يتقدّم عليهم في الأهميّة، وإن كان قد شكّل المؤثّر الأوّل الّذي دعا إلى وجودهم بما يوحيه من مضمون وأحداث، إذ إنّهم عادوا وأثّروا بدورهم في رسم هذا البناء الدّراميّ، ولوّنوا ملامحه في مشاعر المتلقّي؛ لأنّهم شكّلوا الصّورة الأولى الّتي جسّدت العمل أمام عينيه.

فإن كان الشّكل هو الشّروط الفنيّة للعمل، والمضمون هو طريقة تقديم الموضوع، وما جاء فيه من أفكار كما ذكرنا سابقاً فإنّ ذلك لا يعني أنّ الأوّل معادلةٌ يحصي المبدع مدى تحقّقها في عمله، وليس الثّاني مادّة تصبّ في قالب فيجمد دون أن يستمدّ من خصائصه ويمنحه من سماته؛ إنّما هما جزءان فقدا كيانهما الخاص بوصفهما مواد منفصلة، واتّحدا في كيان العمل انطلاقاً من الوحدة المكوّنة لصورة العمل أو شكله، وانتهاء بتعالقهما مع المضمون المعبّر عنه في العمل، وانسجامه مع الدّفقات الشّعوريّة، والمنحى الفكريّ الموجود فيه، والّذي اتّخذ هيئة معيّنة للوصول إلى المتلقّي.

وينبغي هنا أن نشير إلى أنّ الموضوع لا يتطلّب انتقاء الشّكل والمضمون المناسبَين لتقديمه فقط، إنّما كذلك ينتقي نوع الفن الّذي يقدّمه؛ فالفنون عامّة تعكس ثقافة المجتمع وانفتاحه، والحالة الذّاتيّة والنّفسيّة الخاصّة للأشخاص إلاّ أنّها تتفاوت في قدرتها على عكس الأفكار التي يريدها "فلكلّ فنٍّ من الفنون لغته التي يقول بها ما لا يمكن لفنّ آخر أن يقولها بلغته"[19]؛فما يُعبّر عنه بالرّسم والنحت يختلف عمّا يعبّر عنه بالموسيقا أو الأدب وإن اتفقا في التّعبير عن فكرة واحدة؛ فإنّهما يتباينان في القدرة على الإيضاح أو التّقديم؛ إذ إنّ الإقناع بقيم المجتمع والأيديولوجيا الخاصّة الّتي تؤمن بها مجموعة من النّاس تحتاج إلى التّعبير اللّفظي هذا ما يجعلها تميل إلى الأدب من رواية وشعر، وللفنون من مسرح وسينما ودراما أكثر من ميلها للموسيقا والرّسم، بينما تبقى الموسيقا المعبّر الأمثل عن الآلام والأفراح، وعدّت عند كثيرين سبيلاً لتطهير النّفس، وتخليصها من الآثار التي علقت بها إثر ما مرّت به من أحداث، وإن استخدمت أحياناً للتعبير عن إيديولوجيا مجتمع ما إلاّ أنّها أقلّ قدرة على الإيضاح من اللّغة المنطوقة أو المكتوبة.

وعلى مثاله فإنّ الفنّ المعماريّ والنّحت يعبّران عن القيم والثّقافة في المجتمع لكنّهما أقل الفنون تعبيراً عنها بسبب طغيان المادّة الّتي تكوّن هذا الفنّ، فيكون تعبيرها أكثر وضوحاً للمتخصّصين منهم من العامّة؛ فعلى سبيل المثال تختلف المنازل بين قديمها وحديثها في الهيئة، فتشي باختلاف الثقافة السّائدة بين البلدان، أوفي البلد نفسه خلال حقب زمنيّة متلاحقة.

رابعاً: القيمة والتقويم

إنّ العمل الأدبيّ ليس انعكاساً صوريّاً للواقع وحسب؛ إنّما هو في الدّرجة الأولى انعكاسٌ لقيم الفنّان، وطريقة فهمه للأمور، وتأويله للواقع وما عاشه فيه، وقيم الطّبقة الاجتماعيّة الّتي ينتمي إليها ومشكلاتها، والثّقافة الّتي تنشّأ عليها.

وكذلك فإنّ الحكم النّقديّ الصّادر تجاه العمل يُبنى على قيم النّاقد أو المتلقّي، وقبوله للعمل، وفهمه له، وإعجابه به، وهو حكم يوجّه العمل ككلّ؛ أي تجاه تعالق الشّكل والمضمون اللّذَين يشكّلانه، فقراءة

[19] مطر، أميرة حلمي: مدخل إلى علم الجمال وعلم الفن، ط1، دار التوير، 2013، ص 50

العمل لا تعني تفسيراً لما جاء فيه وفق ما أراده الكاتب فقط؛ لأنّ القراءة لابدّ أن تتضمّن إسقاطاً من القارئ لجزء من ذاته على النّص قد يخالف أحياناً ما أراده الكاتب نفسه؛ إذ تتطلّب النّظرة التقويميّة قراءة تحليليّة تعتمد على الذّائقة الجماليّة المدرّبة المثقّفة الّتي تستطيع تمييز الجيّد من الرّديء في الأعمال، كما تستطيع الوصول إلى حقيقة الأعمال، و دقائق مكوّناتها الفنيّة المتجلّية في كيان العمل من جهة، والعوامل الفكريّة والاجتماعيّة والنّفسيّة والعقائدية التي كوّنت الخلفيّة المحفّزة لرسم أفكار النّصّ، وتكوين الرّسائل المراد إبلاغها، والمبثوثة في تلافيفه من جهة أخرى، كما تستطيع التماس العناصر النّفسيّة التي منحت البعد العاطفي الشّخصيّ، أو العام للعمل، وتقف على الملامح الخاصّة الّتي أضافها خيال المبدع، وابتكاره، ووجهة نظره الذّاتيّة الّتي يسعى لترسيخها في العمل، و تتبع أثرها في المتلقي.

كذلك يعتمد الحكم النّقدي على النّظريّات الجماليّة التي ينتقيها النّاقد ليحكم وفقها، وعلى القيم التي يؤمن بها وتؤثّر في حكمه؛ إذ يُعزى تفاوت الأحكام الجماليّة إلى تفاوت النظريّات والقيم التي يُحكم وفقها، وتراتبيّة هذه القيم في حياة الفرد أو مجتمعه؛ فالحقّ والخير والجمال والحبّ والحياة والتّضحية والمنفعة والانتماء وغيرها من القيم تنتظم في المجتمعات استناداً إلى البعد الوطنيّ أو القوميّ أو العرقيّ أو الدّينيّ أو العلمانيّ أو السّياسيّ السّائد فيها، وينتظم إثرها ما يرتبط بها من مبادئ ترسّخها، وقوانين تعدّ تجسيداً عمليّاً لها؛ فعلى سبيل المثال وُضعت كثير من القواعد الّتي تنظّم عرض الأمور السّياسيّة والدّينيّة في الأعمال الفنيّة والأدبيّة؛ فتبيح بعض المشاهد والصّور والجمل أو تحرّمها، من قبيل مراعاة القيم السّياسيّة أو الدّينيّة التي يُمنَع المَساس بها أمام تأخير قيمة الحريّة على غيرها من القيم في مجتمعنا، بينما يبيح مجتمع آخر التّعبير عنها تعبيراً مطلقاً دون قيود أو مساءلات تقديماً منه لقيمة الحريّة على غيرها من القيم.

وكذلك فإنّ انتماء الإنسان لطبقة اجتماعية معيّنة، ومعاناته من مشاكلها، وإيمانه بقيمها يؤثر في حكمه على الأعمال التي تعبّر عن هموم هذه الطّبقة أو غيرها ومظاهر عيشها، وعلى هذا يقيس النّاس قرب الفنّ للجماهير أو بعده عنها من خلال تعبيره الصّادق عن القضايا الّتي تعيشها فئة دون غيرها من الفئات، أو التّعبير المشوّه عن هذه القضايا نفسها، وعلى ذلك توصف الأعمال على أنّها معادل فنيّ للحياة الخاصّة أو العامّة للمتلقّي أو النّاقد، والطّبقة الاجتماعيّة الّتي ينتمي إليها أو أنّها ليست كذلك.

كما يرتبط الحكم النّقدي بالتّجربة الذّاتية والمشاعر الخاصّة الّتي تخلق لديه نوعاً من التّعاطف مع مكوّنات العمل الّتي لامست تجربة شخصيّة معاشة، أو خبرة واقعيّة منتشرة في مجتمعه ومرتبطة بالطّبقة الاجتماعيّة الّتي ينتمي إليها، فتجربة الإنسان تحدث أثراً نفسيّاً يؤثّر في نظرته التّقويميّة للأمور والأعمال؛ فالحكم على لوحة أمّ تحتضن طفلها على سبيل المثال، سيختلف بين شخصين تربّى أحدهما في كنف والدته وحنانها، وآخر ترك صغيراً وحيداً في دار للأيتام، وعليه نجد إطلاق الصفات الإنسانية على الظواهر الطبيعية والأعمال الفنية والأدبية، فيقال: عمل صادق، كلام قاتل، ألوان حزينة، وذلك انعكاس للمظاهر الروحيّة للإنسان الّذي يقوّم هذه الأمور، وليس لأنّها تمتلك هذه الصّفات حقيقة، وإنّما لأنّها استطاعت بتعالق الشّكل والمضمون المقدّم فيها أن تعبّر عن العالم الرّوحي للإنسان متلقّياً كان أم ناقداً.

وعلى ذلك فإنّ منظومة القيم العامّة في المجتمع، أو المرتبطة بجماعة محدّدة مع أفكار الفرد الخاصّة تسهم في نشوء منظومة قيم الإنسان وترتبها وفق رؤيته، وعلى هذا تنشأ النّظرة النسبيّة أو المطلقة

للقيم، وإليها يستند حكم القيمة الّذي يصدره الإنسان في تقويمه للأعمال الّتي تعبّر عن قيمه أو تخالفها، كما تجلّت من قبل في رؤيا الفنان أو الأديب الّذي قدّم قيمه في الأعمال الّتي أبدعها.

وتتعالق القيم مع الشّكل والمضمون؛ إذ تجسد الأعمال القيم العامّة والخاصّة في المجتمعات، وتعبّر عن التغيّرات الطّارئة فيها، كما تسهم في ترسيخ قيم جديدة؛ فعندما تتغيّر نظرة الإنسان والمجتمع لفكرة أو مفهوم فإنّ الأعمال التي تقدّم لابدّ أن تحمل القيم المناسبة لهذه الأفكار الجديدة، وهذا ينعكس في كيان العمل (شكله ومضمونه) الذي يتغيّر مفجّراً طاقة جديدة من العناصر القديمة المألوفة فيها، أو مضيفاً عناصر جديدة تتناسب مع تجدّد القيم الّتي ترافقها.

إنّ هذا التّغيير يسود تدريجيّاً ولا تكون سيادته سهلة في كثير من الأحيان؛ إذ يخضع لكثير من المعوّقات الّتي تحاول عرقلة انتشار الهيئة الجديدة بذريعة الحفاظ على التّراث والتّقاليد، وهو في الحقيقة ليس إلّا رفضاً للتّجديد، أو القيم الّتي تحكم هذا التّجديد؛ فليس تغيّر الهيئة إلا تغيّراً في الأفكار والقيم الّتي تحكمها؛ وهذا ما يفسّر المجابهة القويّة بين روّاد الأدب القديم والحديث بما يمثّلانه من خلاف واختلاف بين نظرة الحفاظ على القيم الموروثة والتّقاليد، ونظرة الانعتاق من القيود والرّغبة في التحرّر، فليست الحرب حرب أطر جديدة وألوان وأشكال؛ إنّما على العكس هي حرب صوريّة لجذور قيميّة راسخة في ذهن الإنسان والمجتمع، وذاكرتهما وثقافتهما وفكرهما، مع قيم جديدة تصوّر التّغيير الثّقافي والفكري والعقائدي الطارئ على الإنسان والمجتمع، وتسعى من خلال تجلّيها في الآداب والفنون لتصبح جزءاً من الثّقافة المستقبليّة للمجتمع؛ إذ إنّ الأعمال الفنيّة الّتي ترسّخ قيمة معيّنة تسهم في خلق جيل يقبل هذه القيمة بصفتها جزءاً من ثقافته، فهذه القيم كما تنشأ في الأعمال متأثّرة بالمجتمع، هي كذلك تعطيها للمجتمع نفسه، وترسّخها فيه من خلال وعي الكاتب والنّاقد للوجود الإنسانيّ كفرد في ذاته، وكفرد في المجتمع، وما يترتّب على ذلك من نشاط يؤدّيه سواء أكان نشاطا إنتاجيّاً أم فنيّاً أو أدبيّاً، ووعي الإنسان نفسه لنتاج هذه النّشاطات.

الخاتمة:

تقوم نظرة النّقويم على إبراز الجمال في الأعمال الأدبيّة أو الفنيّة، وتصويب أخطائها، وليس على تعدادها في العمل، ويرتبط هذا الحكم بالدّرجة الأولى بنظرة النّاقد لقضيّة الشّكل والمضمون المجسّدة في العمل، كما ترتبط بالقيم التي تحكم النّاقد في رؤيته لما يقدّمه العمل من قيم وأفكار، فتكون بذلك الأعمال معادلاً فنيّاً للحياة الخاصّة أو العامّة للمتلقيّ أو النّاقد وما يعتقد به، كما كانت جزءاً من حياة كاتبها ومبدعها الّذي اتّخذ للتّعبير عنها عملاً تعالق شكله ومضمونه بالطّريقة الّتي أرادها ليقدّم أفكاره وقيمه بعيداً عن تقسيم النّص إلى عناصر شكلية وعناصر معنوية، ومفاضلة جزء على آخر فيه، إذ إنّ الطّريقة التّقسيمية وضعت بهدف تسهيل الدّراسة والتّحليل ليس أكثر.

وعليه فإنّ الشّكل والمضمون في كلّ عمل يفقدان خصائصهما كمواد منفصلة، ويستمدّان صفاتهما الجديدة المنبثقة من كيان العمل وطبيعته المنسجمة مع الشّعور والفكر المقدّم فيه متخذين هيئة صوريّة جديدة يُقدَّمان فيها للمتلقي، وتقدّم من خلالها القيم المطلقة والنّسبيّة المراد التّعبير عنها، والّتي يتعالق معها الشّكل والمضمون معبراً عن تعالقها نفسها مع الأحكام المجتمعيّة العامّة أو الشخصيّة الخاصّة والّتي وجدت معادلاً فنيّاً لها في الهيئة الصّوريّة المقدّمة في العمل.

ثبت المصادر والمراجع:

(1) ابن منظور: *لسان العرب*، دار صادر، بيروت، د.ت.

(2) *الاسترابادي النّحوي*: شرح شافيّة ابن الحاجب، شرح شواهده عبد القادر البغدادي، تح محمد نور الحسن، محمد الزفزاف، محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلميّة –بيروت، لبنان–1982.

(3) *العشماوي*، محمد زكي: قضايا النقد الأدبي بين الحديث والقديم، دار النّهضة العربيّة، بيروت،1979.

(4) *الخطيب*، عدنان: مجلة مجمع اللغة العربيّة بدمشق، ج3، ع57، د.د، دمشق، 1982م.

(5) الفتحي، إبراهيم: معجم *المصطلحات الأدبيّة*، التعاضديّة العمالية للطّباعة والنّشر، د.ت، تونس.

(6) الفيروز آبادي: *القاموس المحيط، دار الحديث*، القاهرة، د.ت.

(7) فيشر، أرنيست: *ضرورة الفن*، تر. اسعد حليم، الهيئة المصريّة للكتاب، 1998.

(8) لؤلؤة، د. عبد الواحد: *موسوعة المصطلح النّقدي*، المجلد 1، ط2، المؤسسة العربيّة للدّراسات والنّشر، دار نعمة للطّباعة، بيروت، 1983.

(9) *مجموعة من العلماء والباحثين*: الموسوعة العربية الميسرة، المكتبة العصرية، ط1، صيدا–بيروت،2010.

(10) مدكور، د. محمد: المعجم الفلسفي، الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميريّة، القاهرة، 1983.

(11) مطر، أميرة حلمي: *مدخل إلى علم الجمال وعلم الفن*، ط1، دار التنوير، 2013.

(12) وهبة، مجدي – المهندس، كامل: *معجم المصطلحات العربيّة في اللغة والأدب*، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984.